مظـــاهر العبقرية
فى الحضارة الاســـلامية

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٢ —

عند ما فتح العرب جنوب أوربا واستولوا على جزرها المشهورة وعلى ربوع الأندلس ، انتشرت لغتهم فى جميع هذه الأقطار ، وخاصة فى شبه جزيرة أسبانيا ومنورقة ، وميورقة وجزائر الباليار وصقلية ، وإقريطش وما إليها .

وبلغ من شأن العربية فى أسبانيا أن اضطر آباء الكنيسة إلى نقل صلواتهم وأدعيتهم إليها ليحسن فهمها المصلون الذين كانوا قد زهدوا فى اللغة اللاتينية ومالوا عنها إلى اللغة العامة وهى العربية ، يتدارسون بيانها وقواعدها ، ويحفظون أشعارها وطرائفها ، وظلت العربية هى اللغة الرسمية فى تلك الربوع حتى جلاء العرب عنها عام ١٠١٦ هـ . وقد وجد المنقبون نحو ألفى صك كتبها سكان تلك البلاد الأصليين باللغة العربية [١] وفى مكتبة الأسكوريال فى أسبانيا حتى يومنا هذا معاجم يونانية عربية ، ولاتينية عربية وعربية أسبانية تدل أوضح دلالة على ذلك العصر العربى الزاهر .

وفى اللغة الأسبانية الحاضرة كلمات عديدة تبدأ بأل التعريف العربية ، وفى ذلك أبلغ شهادة على تأثر اللغة الأسبانية باللغة العربية . إذ أمدتها بآلاف المفردات التى لا غنى لها عنها فى التعبير ، ولم يقف نفوذ اللغة العربية عند هذا الحد بل تعداه إلى بقية اللغات السكسونية والجرمانية الحية ، ولهذا فإننا نجد حتى اليوم ألفاظاً عربية بليغة فى كل من اللغات [٢] الانجليزية والتالية القديمة والألمانية ، والهولندية والإسكندنافية ، والروسية والبولندية ، واللغات الصقلية الأخرى .

(١) غرائب الغرب ج ٢ ص ١٣٤ — لمحمد كرد على
(٢) مجلة المعرفة — بحث لسلي مظهر ، والاسلام والحضارة العربية ج ١ لكرد على .

ومما تدل عليه الإحصاءات الدقيقة [١] أن ثلاثة آلاف كلمة عربية قد دخلت اللغة البرتغالية ، وأن ربع الأسبانية الحديثة مأخوذ من العربية ، وأن تسعمائة كلمة من اللغة العربية أيضاً قد أدخلها الفرنسيون فى لغتهم [٢] وتضم الانكليزية كذلك مثل هذا العدد من الألفاظ العربية .

ومن الغريب حقاً أن نجد أمماً غير عربية ما زالت حتى عصرنا الحاضر أممـا تتكلم اللغـة العربية وتكتبها فى جميع معاملاتها ، أو أنها تكتب لغتها بالحرف العربى [٣] ، وما زالت العربية حتى يومنا هـذا شـائعة ومحكية فى معظم أطراف السينغال ، والسودان الفرنسى ، والنيجر ، وليبريا ، والحبشة ، وجيبوتى ، وقازان ، والقريم ، وكرجستان ، وطاغسـتان ، وتركستان وسيام ، والفيليبين ، والهند ، وإيران ، والصين ، وجاوه ، وبلاد المغرب ، ومالطه ، وكردوفان .

نقف عند هذا الحد قليلا لنسأل سرفيه وأمثاله ، أكان فى استطاعة العرب أن يفرضوا لغتهم على جميع الشعوب التى حكموها ، لو لم يكونوا أمة موهوبة جميل المزايا وروائع العبقريات ؟ أم كان هؤلاء الأقوام يقبلون على تعلم العربية بمثل ما رأيت من الشوق والرغبة ، لو لم تكن العربية لغـة حضارة سامية ومدنية زاهرة ؟ .. وإننا لنجد أمماً كثيرة ، بربرية وهمجية ، قد فرضت سلطانها على العالم قروناً طويلة ، ولما لم تكن ذات حضارة عالية بادت وتلاشى سلطانها دون أن تترك وراءها أثراً يذكر .

ولم نذهب بعيداً فى الاستدلال ، وهذه الأمة العربية ذاتها قد تناوبت عليها مختلف الحضارات ، وخضعت لشتى السلطات إلا أنها مع ضعفها السياسى قد حافظت على مزاياها وتقاليدها ولغتها وحضارتها ، ولئن استطاعت هذه الدول أن تفرض عليها سلطانها ونظمها السياسية ، إلا أنها عجزت عجزاً تاماً عن تجردها من ثقافتها ، لتفرض عليها ثقافاتها الخاصة

(١) انجلمان : قاموس الألفاظ الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية
(٢) لامنس — ملاحظات على الألفاظ الفرنسية المشتقة من العربية وكتاب Introductionto the Study of English Literature
(٣) تقويم العالم الاسلامى بالفرنسية — ماسينيون .

العرب فى ميدان العلم وطور الاستعمار :

وقبل أن نبين مواطن الابتكار والعبقرية فى ثروة الإسلام العلمية يحسن بنا أن نرجع ولو قليلا إلى الوراء لنبحث العوامل الرئيسية التى عملت فى تكوين الحضارة الإسلامية ، ولنرى بعد ذلك المراحل الأولية التى تخطتها هذه الحضارة العريقة فى سيرها وتقدمها ، قبل أن تصبح حضارة العالم بأجمعه بلامنازع فليس من شك فى أن العرب وإن كانوا أرباب ملاحظة فى سائر العلوم ، وأمة موهوبة أعلى درجات النبوغ والذكاء ، إلا أنهم شادوا حضارتهم — شأن بقية الأمم المتمدنة — على أنقاض حضارات سابقة قديمة ، وليس من شك أيضاً فى أن الحضارة العربية لم تبلغ حد كمالها فجأة ، إذ أن ذلك أمر بعيد التصديق ، ولكنها بلغته تدريجياً ولكن بخطى سريعة متزنة لم يعرف لها التاريخ مثيلا

لقد كانت أوربا فى العصر الذى بدت تظهر فيه طلائع النهضة العربية تغط فى سبات الجهالة ، وتتمرغ فى هاوية الانحلال ، وكانت المسيحية إذ ذاك قد بدأت بمطاردة الحرية الفكرية فى أقطارها ، وأخذت تنشط فى إحراق العلوم الوثنية وتعقب العلماء والفلاسفة . واستئصال شأفتهم من كل بقعة . يخشى أن يكون لهم فيها صوت مسموع ، أو علم مرفوع ، حاسبة أنها بذلك تبيد من حقلها الأعشاب القريبة التى قد تحول فى المستقبل دون نماء عقيدتها ، وإذ كان النور يشع إذ ذاك من ناحية الجزيرة العربية فقد أخذت هذه الفئات الممتازة الراقية تؤمها آحاداً وأرسالا حاملة إليها نتاج عبقريات الأمم اليونانية والرومانية الدارسة ، وكانت هذه الجماعات حيثما نزلت تعيش فى جوّ من التسامح الفكرى لم تعهد له فيما مضى مثيلا .

أما فى بلاد الشرق فقد أدت الحرب العوان التى دارت قبل الإسلام رحاها بين مملكتى الروم وفارس إلى ضعف كلتا المملكتين فقد غزا هرقل مملكة الفرس ، فتركها أطلالا خاوية ، ثم غزا الفرس مصر والشام فثأروا البلاد هم من مملكة قيصر ، وقابلوا الضربة بضربة مثلها وأخذت المناوشات تترى بين المملكتين مدة طويلة ، وكان من نتيجتها أن ضعف قيصر وذل كسرى ؛ أما قيصر ، فقد استنفدت هذه الحرب الضروس جميع اقتصاديات بلاده حتى لقد عجز عن أن يحفظ حدود مملكته ، وعن دفع الأتاوة للقبائل العربية التى كانت تقوم بحراسة أطراف هذه الإمبراطورية الواسعة ، وزاد فى الطين بلة احتدام الجدل بين الملكيتين واليعاقبة والنساطرة حول طبيعتى المسيح [1] الالهية والإنسانية ؛ وتدخل الإمبراطور إذ ذاك فى هذه المجادلات ، الأمر الذى أدى إلى اضطهاد اليعاقبة والنساطرة ، وإلى اتساع شقة الخلاف . وكان هرقل إذ ذاك قد طعن فى السن ، وأوهت قواه الشيخوخة ، فسقط لذلك ألعوبة بأيدى رهبان إيليا الذين ما زالوا به حتى أوغروا صدره على يهود بيت المقدس ، بدعوى أنهم ساعدوا الفرس حين زحفهم على امبراطوريته ؛ وضربهم إياها تلك الضربة القاضية ، التى صدعت فيها بنيان النظام والطمأنينة والأمن ، فقتل منهم لذلك خلقاً كثيراً ، وجلداً وافراً ، وعدداً لا يعد ؛ وهكذا فقد كان كل من النساطرة واليهود عوناً لكل خارج على قيصر أو طامع فى ملكه وإذا استهواها قبس الحرية الذى كان يشع من ناحية الجزيرة فقد ساروا إليها يحملون معهم فى سيرهم ما انتهى إليهم من نتاج المدنيات السابقة ، وما جادت به قرائحهم المتوقدة ؛ فتفسح النسطوريون فى أرض الحجاز ، وقطن اليهود بلاد اليمن ؛ وكان أمراً طبيعياً أن تنتشر تعاليمها فى سائر أقطار الجزيرة ، وأن تتأثر هذه بها .

ولم تكن الحالة فى بلاد فارس بأحسن منها فى بلاد الروم ، فقد كان الملك فيها — قبيل الإسلام — فى قبضة طفل صغير لا يجاوز الخامسة عشرة من سنه ، ثم فى قبضة امرأة مستضعفة ، وهى بوران بنت كسرى ؛ ولما بلغ النبى أمرها قال « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » وهكذا فقد كان عرش فارس ألعوبة بأيدى أطفال صغار ، ونساء جاهلات ؛ ولم تكن حالة الزرادشتيين فى فارس بالتى تدعهم يخلدون إلى السكينة والاطمئنان ولذلك فقد أصبحت الجزيرة — قبيل الإسلام — مثابة صالحة للمضطهدين والمغلوبين على أمرهم من أحرار فارس والروم .

(يتبع) خليل هنداوى الطوال

(١) تاريخ سعيد بن بطريق